دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

القرصنة الأوربية في المتوسط
من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر

د. حامد العجيلي
أستاذ مساعد التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّص

مثلت القرصنة الأوربية أحد أبرز الأنشطة المربية في البحر المتوسط خلال الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر وكان ذلك معاصرًا لتطور صناعة السفن والتجارة البحرية في المدن الساحلية الأوربية، فإلى جانب الطابع الربحي للقرصنة الأوربية فإنها ساهمت في زرع الرعب في المتوسط وعلى سواحل المدن المتوسطية المغربية والإفريقية بشكل خاص. وما سنقوم بتوضيحه في هذا المقال إبراز التفوق البحري الأوربي خلال الفترة المشار إليها ثم تتبع ظاهرة القرصنة الأوربية وتطورها الزمني لنقف عند تطورها من الناحية التنظيمية والنتائج التي أسفرت عنها وخاصة عمليات الأسر والاستعباد التي لحقت أعداد كبيرة من ضحايا القرصنة الأوربية. ولتوضيح كل ذلك قمنا بتتبع المصادر واستدرار مخزونها لذلك اعتمدنا على السرد والتحليل ثم الاستنتاج في كل مرحلة من مراحل كتابة المقال حتى يتسنى للقارئ فهم الأطر التاريخية والأحداث القرصنية التي رافقتها ثم الخروج باستنتاجات مسترسلة حسب العناصر التي بوبناها لننهي مقالنا باستنتاجات كبرى تتعلق بظاهرة القرصنة ونتائجها الوخيمة على ضحاياها الذين انتهى بهم المطاف إما في عداد المفقودين أو سلعة للتداول في أسواق العبيد وهو ما يعني ضرورة البحث في مصير العبيد والأسرى المغاربة خلال العصر الوسيط.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١١ يوليو ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ أغسطس ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

قرصنة أوربية؛ البحر المتوسط؛ مدن مغربية؛ عبيد؛ أسرى.

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2021.248723

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حامد العجيلي. "القرصنة الأوربية في المتوسط من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٣١ – ١٤٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: hamedajili2@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَّورية كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

إن كلمة حرب في قاموس العهد الوسيط تحيلنا على "الجهاد والغزو والقتال مع العدو أو دار الحرب التي تعني بلاد المشركين الذين لا صلح بينهم وبين المسلمين[١] وأوردت المصادر الحفصية عديد الألفاظ التي على صلة بالحرب ومنها "القطع والغزو والجهاد والفتح وتمهيد النواحي والقرصنة واللصوصية". تعبر هذه المفردات عن السياق العام الذي أدرجت فيه فالفتح والحركة غالبا ما كانا مقترنين بالعمل العسكري ضد المتمردين عن الدولة[٢] أما تمهيد النواحي فبمثابة عملية استعراضية لقوة الدولة في شكل عمل شبه دوري يقوم به كل سلطان حفصي جديد ضد المناطق البعيدة عن المركز.[٣]

وخلال فترة بحثنا وقفنا على كلمة "الجهاد" فقد ذكرت في القرنين الأخيرين من عمر الدولة الحفصية وكان ذلك منذ فترة السلطان أبو العباس أحمد(١٣٧١-١٣٩٤) في حين ورد لفظ الغزو وقد استعمل بكثافة في العهد الموحدي (في صيغ مختلفة مثل الغزاة والغزى) والتي نجدها في مؤلف العبر لابن خلدون.[٤] وما يلاحظه الدارس أن لفظتي القطع والقرصنة قد تم استعمالهما في الوثائق الرسمية الحفصية والمؤلفات الفقهية التي تحدثت عن "قطع الطريق" وحكمه الشرعي عند الفقهاء[٥] وتم سحبها كذلك على المجال البحري للدلالة على انعدام الأمن.[٦]

أما كلمة "قرصلة" فهي تحريف لـ "قرصنة" وقد ذكرتها الوثائق الرسمية في معاهدات السلم والتجارة والرسائل المتبادلة بين الأرغونين والحفصيين مع بداية القرن الرابع عشر. كما استعمل اللفظ في الفترات اللاحقة إذ ذكر ابن عبد الباسط في رحلته الذي ذكر "قرصال"[٧] وتحدّث البرزلي عن "اللصوصية".[٨] وحسب مختلف تلك الألفاظ التي وردت في المصادر على امتداد كامل الفترة المعنية بالدراسة تبين لنا أن لفظ القطع يعني لصوصية البحر ويقابلها بالفرنسية «Piraterie» و«Piracy» بالأنقليزية ولعل استعمال كلمة قرصنة المعربة عن الأصل اللاتيني «Corsaro» والتي على صلة على ما يبدو بجزيرة كورسيكا قد أصبحت تعني العمل الشرعي الذي تقوم به كل سفينة مسلحة رخص لها بأن تجوب البحار وتقاتل سفن الأعداء المغيرة على سواحلهم وهي عملية شرعية كانت تخضع لمراقبة السلطة التي تشرف على تنظيمها منذ الفترة اليونانية والرومانية.[٩]

تُحيلنا مختلف الألفاظ التي أشرنا إليها عن واقع معقد كان يعيشه المتوسط بضفتيه الشمالية والجنوبية حيث امتزجت عمليات الأسر والاستعباد بالتجارة والحرب، وكانتا (الحرب والتجارة) تشكلان وسيلتين أساسيتين متداخلتين للحصول على الثروة المادية والبشرية. وتبعًا لذلك فإن الأطراف المشاركة في العمل القرصني كانت ترتبط بمصالح أخرى تبدو عضوية مما ألزمها الحفاظ على تواصل العلاقات بين الطرف المسيحي وسلاطين بلاد المغرب والأندلس، وعموما تميزت تلك الفترة بتنامي عمليات الغزو والقرصنة بين الجانبين مما ساهم في وجود عشرات الآلاف من الضحايا الذين كان مصيرهم إما الأسر وافتكاك حريتهم أو العبودية المؤبدة.

أولاً: القرصنة خلال القرن الثاني عشر

منذ القرن الثاني عشر الميلادي نجد صدى القرصنة الأوربية في المعاهدات الدبلوماسية والتجارية وارتبط تطور القرصنة بالتغيرات الداخلية التي شهدتها أوربا متمثلة في انبعاث الحروب الصليبية وتنامي حركة الاسترداد في الأندلس بالإضافة إلى تطور صناعة السفن والعمل التجاري الذي تحكّم فيه الإيطاليون بشكل خاص. وقد وازى تلك التحولات روح المغامرة والبحث عن الثروة من قبل قراصنة يعملون لحسابهم الخاص كما كانت الغزوات والعمليات الحربية التي تقوم بها الدولة أكثر دموية من خلال خطف مئات أو آلاف الأسرى أصيلي إفريقية الذين كان يتم شحنهم لبيعهم في الأسواق الأوربية.[١٠]

وقد وثقت المصادر العربية صور أغلب عمليات القرصنة التي تعرضت لها السواحل الإفريقية خلال فترة زمنية طويلة نسبيا حتى أن أحد المؤلفين ذكّر أن الكسوف الكلي للشمس قد ارتبط بنزول الروم على المهدية سنة ١٠٨٧م ف"سبوا أهلها وقتلوا من شاءوا منهم وأحرقوهم بالنار ووقع الصلح على مائة ألف دينار تدفع لهم ويقلعون بما حصل في أيديهم من المسلمين فدفعت لهم وأقلعوا بأموال المسلمين ونسائهم وأبنائهم."[١١] إن ذلك الكسوف المبالغ فيه من قبل ابن عذاري قد مثل بالفعل منعرجا حاسما في تاريخ العلاقات الثنائية بين إفريقية والبلاد الأوربية حين أصبحت الحرب لأول مرة تدور رحاها على أرض إفريقية كما كانت كذلك مناسبة أولى لمعرفة أوربا بوجه مغاير عما كان سابقا بعدما تم مهاجمة المهدية بقوة بحرية قدرها ٣٠٠سفينة واجتمع فيها كل من الجنويين والبيشيين بمباركة البابا فيكتور الثالث.[١٢]

تتالت بعد ذلك التاريخ سلسلة من الهجمات على مختلف المدن الساحلية لبلاد المغرب ولخص ابن خلدون تلك الوضعية بقوله: "كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم التغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره مثل

دانية وسردانية وميورقة وصقلية وملأت أساطيلهم فضاءه ثم تخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومران راكبيه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أيام ثم فشل ريح الفرنجة واحتل مركز دولتهم بإفرنسة وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة".[١٣]

من خلال هذه الصورة العامة التي قدمها ابن خلدون تبدو مجريات الأحداث التي شهدها المتوسط قد تغيرت كليا في مجال البحرية المغربية وخاصة بعد سقوط الموحدين.[١٤] وتبعًا لكثافة عمليات القرصنة ضد بلاد المغرب يبدو من الصعب القيام بعملية جرد لكل الهجمات البحرية الأوربية على المدن الساحلية المغربية ذلك أن المصادر الإخبارية والوثائقية لا يمكنها رصد كل الأحداث على امتداد ثلاثة قرون ونصف.

مع صعود النورمان في صقلية إلى الحكم[١٥] تواترت العمليات العسكرية ضد الزيريين فتعرضت جزيرة جربة إلى عملية غزو سنة ١١٣٤م فقتلوا من قتلوا وبقي الباقون تحت طاعتهم" وحاول أهل هذه الجزيرة مقاومة الحضور النورماني ١١٥٣م فقتلوا منهم جماعة كثيرة مما استدعى تدخل النورمان ثانية في نفس السنة وأخضعوا الجزيرة فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولم يبقوا بها إلا من لا بال له.[١٦] وفي سنة ١١٤٢م خرج أسطول صاحب صقلية فضرب على مدينة طرابلس وفي سنة ١١٤٣م دخل مدينة صفاقس ودخلت في عمل رجار صاحب صقلية وفي سنة ١١٤٨م كان تغلب الروم على مدينة المهدية وخرج منها صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ولما استولى صاحب صقلية على هذه المدينة كانت بإفريقية مجاعة عظيمة فخاف أهل تونس من أهل هذه السواحل من النصارى وكان صاحب صقلية دخل بونة وسبى أهلها."[١٧]

كما اجتاح النورمان جزيرة قرقنة سنة ١١٤٥م وطرابلس سنة ١١٤٣م التي احتلت لمدة ستة أشهر ثم أصبحت تابعة لملك صقلية وتم أخذ صفاقس أيضا سنة ١١٤٨م إضافة إلى قابس وسوسة وسقطت المهدية سنة ١١٤٨م وأصبح روجار الثاني بمثابة ملك إفريقية.[١٨] وبقيت عمليات النهب والغزوات المفاجئة النورمانية متواصلة حيث تمت مهاجمة سواحل بني حماد فدخلوا جيجل سنة ١١٤٣م وأحرقوها بالإضافة إلى موانئ أخرى صغيرة تقع بين تنس وشرشال وحسب الإدريسي فإن احتلال مدينة بونة سنة١١٥٣م قد تسبب في تفقير المدينة من سكانها كما سقطت المهدية كذلك بيد الصقليين سنة ١١٨٠م.[١٩]

وما يمكن قوله إن القرن الثاني عشر-كما بينت المصادر- كان زمنًا صعبًا على أهالي المدن الساحلية الإفريقية واعتمادًا على المصادر في تلك الفترة يمكن للباحث كتابة عمل منوغرافي خاص بكل مدينة وعلاقتها بالمجال البحري الذي أصبح مجالاً هشًّا سهل الاختراق من قبل الغزاة، ولكن ذلك الوضع قد ارتبط بعناصر "تنشيطية" جديدة لاقتصاديات بلاد المغرب عمومًا.

ثانيًا: القرصنة خلال العصر الحفصي

لقد ورث الحفصيون ذلك الواقع منذ بداية حكمهم الذي سيشهد تغيرات عدة ارتبطت بموازين قوى وعلاقات مد وجزر مع القوى المسيحية الذين تعاملوا معها وبالتالي لم تكن القرون اللاحقة سوى حلقات ربط تطفو على السطح أحيانا مواطن القوة وتختفي في فترات لتعود إلى الواجهة حسب مجريات الأحداث التي تحكمت فيها مسارات داخلية خاصة بكل دولة ومسارات خارجية عكستها العلاقات الدولية.

ففي منتصف القرن الثالث عشر (١٢٥٨م) تم احتلال طرابلس لمدة خمسة أشهر كما سقطت الحمامات سنة ١٢٦١م[٢٠] بالإضافة إلى الحملة الصليبية الثامنة على تونس سنة ١٢٧٠م، كما احتل القل من قبل شارل دنجوا سنة ١٢٨٢م وتدخلت أساطيل الصقليين والأرغونيين عن طريق روجي دي لوريا في جربة سنة ١٢٨٣وقرقنة والمهدية سنة ١٢٨٧م بالإضافة إلى مرسى الخرز (القل) الذي كان موطن صناعة السفن والعمل القرصني ضد سردينيا فتم تدميره سنة ١٢٨٦م "واحتملوا أهلها أسرى وأضرموا بيوتها نارا" أما جربة فبقيت إلى حدود ١٣٣٥م تحت السيطرة المسيحية.[٢١]

وعلق الرحالة المغربي العبدري على ما شاهده قائلا "ومن أغرب المسموعات أنا صادفنا وقت المرور زورقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج وأسروا من البر أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناظرين في فدائهم."[٢٢] أما عملية الغزو التي قام بها دوريا لسواحل المغرب الأوسط سنة ١٢٨٢م فكان مخططا لها من قبل القطلانيين لأهداف تجارية نظرا لأهمية ميناء القل ومدينة قسنطينة بالإضافة إلى كل من جزيرتي قرقنة وجربة اللتان تمثلان نقطتين إستراتيجيتين.

ويبدو أن احتلالهما كان مقابل التعاون الذي أبدوه مع أبي إسحاق وكانت الحملة القطلانية على مدينة القل جد قاسية فبالرغم من النزال الذي وقع بين الجيشين وفرار أغلب السكان إلى الجبال المجاورة فقد تم أسر العديد من الرعايا واقتسام تلك "الغنيمة" من قبل الجنود المشاركين في الحملة وقد بيع الأسرى بأثمان مختلفة فالرجال كان سعرهم يتراوح بين ٧و١٠دنانير وتم الاحتفاظ بالأسرى من النساء والأطفال.[٢٣] وكان Roger de Lorria منذ استقراره بجزيرة جربة سنة ١٢٨٣ يقوم باعتداءات متكررة على سواحل إفريقية وفي سنة ١٢٩٧م تم تعيين المسمى Bernat de Sarria أميرال مقاطعات أرغون عوضا عن Roger وكلف هذا الأميرال الجديد القيام بالعمل القرصني معتمدا في ذلك على أسطوله المتكون من ٢٠غليونا والذي اعترض سفينة بلنسية كانت تحمل تجارا من بجاية متجهين إلى ميورقة في شهر سبتمبر من سنة ١٢٩٧ فأسر كل من كان في المركب وبعد أشهر قام بمهاجمة السواحل التونسية وأسر عددا من سكان جزيرة جربة وجزر قرقنة.[٢٤]

إن تلك الأحداث لم تكن منعزلة عما كان يقع في أماكن أخرى ببلاد المغرب والأندلس فتعرضت مدينة إشبيلية سنة ١٢٤٧م إلى حصار بري وبحري حيث ذاق أهلها شر الجوع والخطف والقتل ويقول ابن عذاري في هذا الغرض: "فاشتد في هذه السنة حصارها وتملأت منهم أنظارها وأقطارها وأخذوا خلقا كثيرا من أهلها واختطفوا في الأجفان بعض أطفالها وضيقوا بها غاية التضييق ورموا الحجارة بالمنجنيق وعدموا المرافق كلها قليلها وجليلها ومات بالجوع خلق كثير وعدمت الأطعمة من القمح والشعير وأكل الناس الجلود وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود[٢٥] ولتوثيق هذه الحادثة خط أبو موسى هارون بن هارون أحد الشعراء الذين عاصروا هذه النكبة قصيدة رثائية ذكرت تفاصيل الحدث وجاء فيها.

فالبحر بالمنشئات ارتج من ذعر
والبر بالمرهفات ارتاع فاكتتما
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم
جسر من الفلك لا تشكو به السأما
فكم أسارى غدت في القيد موثقة
تشكو من الذل أقداما لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفا
عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
يدعو الوليد أباه وهو في شغل
عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والها فيهم ووالهة
لا يرجع الطرف إن حاورته الكلما
لهفي عليهم وما لهفي بمغنية
عمن تبدل بعد النعمة النقما
في كل حين ترى صرعى مجدلة
وآخرين أسارى خطبهم عظما[٢٦]

وغير بعيد عن الأندلس حدث عمل مشابه في سنة ١٣٠٠م حيث تمكن شارل الثاني من احتلال لوشيرا[٢٧] وحمل معه ٤٥٠شخصا إلى نابلي وتم سجنهم إما بقصد الحصول على فدية كبيرة بشأنهم أو لاستبدالهم بالأسرى أو كذلك قصد تحويلهم إلى عبيد أما ما تبقى من الأسرى والبالغ عددهم ١٠,٠٠٠أسيرا فقد تم بيعهم بأبخس الأثمان وحصلت نابلي على ما يناهز ٢٥٠٠عبد من النساء والأطفال والرجال في حين كان بباري ما يقارب ٢٠٠عبد.[٢٨]

لقد كان القراصنة يجدون الدعم الكافي من قبل الملك الأرغوني الذي صرح سنة ١٣٠١بأن أميرالـه (Lorria) يحترم الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة مع السلطان الحفصي. فقام بعمليات غزو ضد الحمامات سنة ١٣٠٣ وما بين سنة ١٣٠٣-١٣٠٤ أغار على قصر زياد والمهدية وبونة وكان في كل مرة يقوم بالقتل والتدمير ويحمل معه عديد الأسرى وخاصة من الأطفال لبيعهم إما في Pentellaria أو جزيرة صقلية كما تمت مهاجمة صفاقس سنة ١٣٠٦م وأسر عدد من التونسيين سنة ١٣١٤م في عرض البحر وحملهم إلى صقلية وفي سنة ١٣١٦م قام قراصنة بمهاجمة بجاية.[٢٩]

كان الميورقيون كذلك يقومون بعمليات قطع وقرصنة ضد الحفصيين في فترة ابن اللحياني ولم يسلم المبعوث الخاص للسلطان الحفصي الطبيب أبو العباس ابن عيشون من الأسر سنة ١٣١٢ إلى الملك الأرغوني جاك الثاني في طريق عودته إلى إفريقية ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل الملك.[٣٠] وفي إطار التوتر الذي كان سائدا بين كل من أرغونة وميورقة كان رعايا بجاية ضحية هذا الصراع حيث قام الطرفان بأسر العديد من البجائيين سنة ١٣١٦ وتم تحويلهم إلى عبيد في كل من برشلونة وبلنسية وميورقة وأقدم البجائيين على احتجاز قنصل القطلانيين احتجاجًا على عدم إطلاق سراح الأسرى البجائيين وكان ذلك سنة ١٣١٦م.

وخلال تلك التوترات التي كان مسرحها المتوسط والسواحل المغربية وخاصة الحفصية كانت المبادلات التجارية متواصلة وبقيت عمليات التحرش والعنف المتبادل بين الطرفين ذلك أنه تم مصادرة ملكيات الحفصيين في أرغونة كما تواصل تصدي القراصنة البجائيين للهجمات الميورقية سنة ١٣١٩م. وفي السنة الموالية (١٣٢٠) تمكن الأميرال الأرغوني Francesc Carroz من أسر عديد التونسيين ورد السلطان الحفصي بإغلاق فنادق القناصلة القطلونيين لمدة تسعة أشهر قصد إطلاق سراح الأسرى وأمر تلك الحملات شبه المنظمة وقد اندرجت في إطار الضغوطات المباشرة على الحفصيين لفتح الأسواق للمبادلات التجارية وللتزود كذلك بالأسرى الحفصيين.[٣١]

إزاء تلك الوضعيات تعددت الشكاوى الحفصية الموجهة إلى الأرغونيين بشكل خاص للاحتجاج على خرق المعاهدات وذكرت لنا وثيقة مؤرخة في ١٣ماي ١٣٠٦م "اعتداءات حاكم جربة القطلاني". وفي رسالة أخرى بعث بها أبو عبد الله الأمير الحفصي اتهم القوى الأوربية بعلمها بما كان يحدث من خرق لبنود المعاهدات ومساهمة السلطات الرسمية الأوربية بدعم تلك الاختراقات وتذكر الوثيقة"ورجالكم يتصرّفون في القرصلة وفي عمارة الأجفان الغزوانية المضرّة للمسلمين فإذا ألحقتهم أذيّة من المسلمين مشوا إليكم وتشكّوا وقالوا: نحن رجالك ورعيّتك وضرّنا صاحب البحر بحضرة تونس"[٣٢]

وذكر ابن بطوطة الذي مرّ بإفريقية في شهر أفريل من سنة ١٣٤٩م أنه ركب البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة ونزل بجربة وسافر المركب المذكور إلى تونس فاستولى العدو عليه[٣٣] كما أفادتنا شهادته في وصف مرسى جزيرة سردينيا الذي كان عجيبا على حد قوله "عليه خشب كبار دائرة به وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا منها"ونقل لنا كذلك ما أصاب المسافرين من رعب حين علموا بعزم أهلها على أسرهم."[٣٤]

وأمام العجز الذي بدا عليه المغاربة ضد القطلانيين خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر في المجال البحري وخاصة بالسواحل الإفريقية منذ احتلال جزيرة جربة أصبح هاجس الخوف والقلق والإرهاب الذي انتشر بين سكان السواحل بشكل خاص مما أدى ببعضهم إلى الادعاء عند أسره بأنه أصيل جزيرة جربة للإفراج عنه كما تميزت العلاقات السياسية بانعدام الثقة المتبادلة مما أثر على التجارة بين الطرفين التي من أسسها السلم والثقة ولهذا فإن المعاهدات المبرمة لم تكن سوى إلزام للطرف المغربي في حين كان خرق تلك الاتفاقات بمثابة عادة متواصلة من قبل الأوربيين.[٣٥]

إن القطلونيين والأرغونيين والبلنسيين والميورقيين كانوا يقومون بالنشاط القرصني وتعلن السلطات الرسمية ظاهريا التزامها بالقانون والمعاهدات المبرمة مثلما أشارت إلى ذلك الوثيقة الاحتجاجية السابقة الذكر ولكن الواقع كان يثبت العكس حيث كانت مغامرات القراصنة قد أدت إلى مشاركة فعلية للسلطة السياسية من خلال فرض ما يسمى بالخمس المخصص للملك من الغنائم التي كان يحصدها القراصنة وهو نفس المبدأ الذي كان سائدا على ما يبدو لدى الحفصيين وسلطات تلمسان.[٣٦]

وأشار أحد الدارسين أنه خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر كان القطلانيون قد حافظوا على نفس العلاقات التي ربطتهم بإفريقية وباقي أجزاء بلاد المغرب وكانت تلك العلاقات متعددة الوجوه حيث توفرت جملة من العناصر تمثلت في التجارة والقرصنة وفترات الهدنة والميليشيات العسكرية بالإضافة إلى العبودية. ومثلت تلك العناصر مجتمعة، المكون الأساسي للعلاقات بين الأطراف التي ذكرنا ولكن القطلانيين اتجهوا أكثر نحو إفريقية ويعود ذلك إلى أغراض ثلاث: قرب جزيرة صقلية من إفريقية واحتلال جزيرة جربة وجزر قرقنة بالإضافة إلى غزو جزيرة سردينيا في سنة ١٣٢٣-١٣٢٤م.

إن بلاد المغرب بقيت في أذهان حكام أوربا المسيحية مجالاً لامتداد حروب الاسترداد رغم العامل التجاري والمصالح المشتركة التي ربطت الطرفين المسيحي والمغربي إذ أعتبر القرنان الثالث والرابع عشر العصر الذهبي للتجارة الكبرى إلا أن الاحتفاظ بمصطلحات فترة الاسترداد وفكرة الحرب الصليبية بقيت جنبا إلى جنب مع المفاوضات التي كانت تجري بين الطرفين ولا تتعلق المسألة بالبحث عن نفوذ اقتصادي فحسب وإنما يبدو أن فكرة احتلال مناطق جديدة بقيت واردة.[٣٧]

كانت حملات القراصنة ضد مدينة الحمامات بين سنتي ١٣٥٩و ١٣٦٠م ثم تونس وسوسة سنة ١٣٦٠م وكانت ردود الفعل الحفصية لا تتجاوز عمليات المصادرة أحيانًا لبعض السفن القطلونية أو اعتراض السفن القريبة من السواحل وذلك لعجز الأسطول الحفصي على مجاراة التطور الأوربي في صناعة السفن.[٣٨] أما سنة ١٣٩٠م كانت الغزوة الفرنسية الجنوية ضد المهدية التي حوصرت لمدة شهرين إلا أنها باءت بالفشل كما تم مهاجمة تدلس سنة ١٣٩٨م ثم بونة سنة ١٣٩٩م من قبل الأسطول البلنسي والميورقي وتدخل (Alfonso V) ضد قرقنة

سنة ١٤٢٤م وضد جربة ١٤٣٢م بالإضافة إلى العمل الرهيب الذي قام به فيليب دوريا ضد طرابلس سنة ١٣٥٤م.[٣٩]

وكان قائد البحر والترجمة عبد الله الترجمان شاهد عيان على بعض أعمال القرصنة التي حدثت بميناء مدينة تونس في فترة أبي فارس عبد العزيز أصبح قائد البحر والترجمة وذكر أن مركبًا لقوم موسوقا بسلع المسلمين فلما أرسى بالمرسى دخل عليه مركبان من صقلية فأخذوه لحينه بعد أن هرب المسلمون منه برقابهم واستولى النصارى على أموالهم"[٤٠]

إن واقع القرصنة الأوربية آنذاك لا يختلف عما كان سائدًا خلال القرن الثالث عشر. مثلما ذكرت الوثائق الرسمية التي أكدت على وصول مسطحان للبيشانيين إلى مرسى تونس: "أحدهما يسمى الأركليوس والآخر يسمى الكرناطة ومعهما زوج قطايع فوجدوا بالمرسى ثلاثة مراكب للمسلمين أحدهم تيسر للإقلاع وفيه جميع وسقه وجميع التجار والركاب والمركبان فيهما بعض الوسق فأخذوا ثلاثة مراكب للمسلمين المذكورة بجميع الوسق وجميع التجار والركاب وقتلوا جماعة من المسلمين سوى من رمى نفسه إلى البحر فمات غريقا وجرح منهم ما لا يحصى وانتهكوا حرمتهم وفضحوا حريمهم...فبعد الخطب الطويل معهم ما ردوا المسلمين على أسوء حالة من الجراح والعري دون أن يتركوا لهم شيئا من رحالهم وأموالهم وردوا المركبين الذين فيهما بعض الوسق وأقلعوا بالمركب الثالث...(عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠).[٤١]

ويبدو حل مشكل القرصنة والتعديات التي كانت تحدث في الموانئ الإفريقية لم يكن يتم تسويتها بشكل سريع وإنما يحتاج ذلك إلى مراسلات متبادلة قصد التوضيح والشرح وهو ما حدث في هذه القضية التي عرضتها الوثيقة المشار إليها أعلاه وكان الحفصيون ملزمون على ما يبدو بتقديم الحجج الكافية لتأكيد صحة شكواهم كما هو الشأن بالنسبة للموحدين والزيريين. ونقرأ في الوثيقة التالية ما يلي: "يقول شهداء هذا العقد الذي نعلمه ونشهد به أن المسطحات التي أخذت مركب الرايس مسعود بوادي تونس في شهر شوال من سنة ست وتسعين وخمسماية نعلم أن جميع من كان في المركب المذكور إنما هم من أهل مدينة تونس وباديتها وحجاج وصلوا من المغرب ولم يكن فيه من الإسكندرية إلا رجل واحد ولم يكن معه إلا شيء يسير فهذا الذي نعلمه ونشهد به.."[٤٢]

وفي عقد الصلح المؤرخ في بداية القرن الرابع عشر(١٣١٣م) بين السلطان الحفصي أبو يحيى زكريا وبيشة نجد فيه بعض النقاط الخاصة بالتجارة وكذلك بالقرصنة والأسر ونقتطف النقاط التالية: "أن يكون كل تاجر منهم غير ممنوع من السفر عند تخلصه في الحضرة العلية...وأن يكون من يصل معهم من غيرهم من التجار له ما لهم وعليه ما عليهم...وأن يكون لهم ببونة حرسها الله فندق يختصون بنزولهم فيه لا يشاركهم فيه غيرهم من النصارى وأن يجروا فيه على عوائدهم في حضرة تونس حرسها الله وكذلك في قابس وصفاقس وطرابلس ...وعلى أنهم لا يشترون ممن يقطع على المسلمين شيئا ولا من أسراهم ومتى وجد بأيديهم شيء من سلع المسلمين التي أخذت لهم أو أسراهم أخذ ذلك منهم بغير عوض.[٤٣]"

كما التزم الحفصيون في عقد الصلح المؤرخ في ١٦ ماي سنة ١٣٥٣م بالتالي: "لا يصل إلى بلادهم الساحلية ولا إلى أي جزرهم جفن حربي لضررهم من الحضرة العلية مدة هذا الصلح المذكور...وأنه متى عطب لتجارهم مركب في ساحل من السواحل الإفريقية وما إليها فعلى من قرب من سكان البلاد المذكورة حراستهم بغير إجارة حتى يخلصه أصحابه ولا يؤدون في حمل سلعهم إلا ما جرت به العادة..."[٤٤] وذكرت لنا وثيقة سلم أخرى التزام الحفصيين والبيشانيين بضرورة "مكافحة القرصنة" ونص ذلك الاتفاق أنه: "إذا خرج جفن أو مركب من مراكب البيشانيين أو من نظرها في البحر يقطع أو يحدث شرا على المسلمين فعلى البيشانيين أن يأخذوا الجفن أو المركب ويقتلوا من فيه وتسلب أموالهم حيث كانت ببيشا أو نظرها ويسلم ذلك للديوان المذكور وإن عمرت أجفان من جهة المقام العلي في طلب قراصنة فعلى البيشانيين أن يعمروا في الإعانة في ذلك ويتوجهوا حيث يؤمروا مدة إرادتهم وإن عمر احد من البيشانيين جفنا من البلاد المذكورة فعليه ألا يضر أحدا من المسلمين الذين من الحضرة العلية ولا من سائر بلادها ولا يضر المسلم المسافر من الحضرة العلية أحد من البيشانيين وأن متى ما وصل عدو بيشاني لمرسى الحضرة العلية أو ما إليها من البلاد فعلى البيشانيين المقيمين بالحضرة العلية الإعانة للمسلمين والخروج معهم لقتال عدوهم".[٤٥]

ونظرًا لما وفرته القرصنة من موارد هامة وأعداد من الأسرى أتخذ قرار في سنة ١٤١٥ بأن يكون خمس 1/5العبيد الذين يتم أسرهم من قبل القراصنة الصقليين تعود لفائدة أميرال صقلية بعد أن يأخذ 1/3 الغنيمة لمصاريف التسليح وتجهيز السفن وحين تخرج سفينة من صقلية للغزو فإن الأميرال يأخذ ٢فلوران على كل عبد يباع ويمنع تصدير العبيد من الإمارة بدون ترخيص وإذن من الأميرال وقد شارك ملك نابلي كذلك في حرب

القرصنة فتمكن سنة ١٤٦٧ من أسر ٣٠٠مغربي من سواحل بلاد المغرب وتم استعبادهم.(٤٦)

إن كل المبادلات الإسبانية الإفريقية سواء تعلق الأمر بالبشر أو البضائع كان لها دافع وحيد يتمثل في الرغبة في الربح وجشع الثروة وحسب المصادر المسيحية المعاصرة لتلك الفترة فإنه يكفي أن تتوفر الجرأة والجاهزية لاستعمال العنف وأن يكون المرء صاحب حيلة وألا يكون مترددا أمام الوساوس لكي يغامر ويتجاوز الصعاب وكان طاقم السفن يرددون الأغاني سواء كان ذلك عند انتهاء مهام غزوهم أو عند طي أشرعة سفنهم غير آبهين بالمخاطر وغير مبالين لما يحدث معتمدين في ذلك على ثقتهم في سلاحهم وقوتهم والله الذي لا يتخلى عنهم ليشد أزرهم عند غضب البحر أو عند مداهمة العدو.(٤٧)

ولدينا نص يعود إلى القرن الخامس عشر عنوانه "المنتصر Le Victorieux" وهو يترجم عن تلك العقلية التي كانت سائدة و يبين لنا مختلف مراحل الاستعداد للعمل القرصني والمدن التي استهدفت خلال كامل العملية الحربية المنظمة من قبل الملك الأرغوني ضد سواحل بلاد المغرب ونظرًا لأهمية النص فإننا نورد أهم المحطات التي توقف عندها Péro Nino قائد تلك الحملة.(٤٨)

أشار صاحب المؤلف أن سبب تلك الحملة تعدد الشكاوى التي وردت على الملك الأرغوني والمتعلقة بالقراصنة القشتاليين الذين كانوا يعيثون فسادا في المتوسط الشرقي وبناء على ذلك، قام الملك باستدعاء Nino وجهّزه بعدد من الغليونات في مدينة اشبيلية كما أمره أن يقوم باختيار بحارة جيدين ذوي خبرة في العمل البحري للقيام بتلك المهمة السرية وقد وضع على ذمة ذلك القرصان ومجموعته أسلحة متنوعة وعدد من الغليونات ومجدفين مختصين بالإضافة إلى سفينة شراعية كما حمل معه كمية من القطع الذهبية والفضية ليقوم بصرفها في الدول الأجنبية وكان برفقة Nino ثلاثون شخصا بالإضافة إلى أحد أقربائه المسمى Fernando Nino.(٤٩)

كان خروج القرصان من كورية الموجودة قرب الوادي الكبير بأسبانيا ثم العبور إلى برّميدا-قادس-مضيق جبل طارق-مدينة طريفة-جبل طارق-جزيرة شريش (Algaziras)-Almonissar- وتم الوصول إلى مالقة في منتصف شهر ماي-قرطاجنة-المرية-ساحل بلاد البربر-أين بدأ البحث عن المغاربة في كهوف Alcoçébar grottes والتزود بالماء بعد معركة طاحنة ثم الوصول إلى جزر الحبيب (قرب وهران) للبحث عن المغاربة وقفل راجعا إلى قرطاجنة- ثم توجه إلى ميناء طولون الفرنسي-و اتجه بعد ذلك إلى ميناء Orestano بسردينيا حيث علم أن بعض قراصنة إفريقية قاموا بأسر عدد من المسيحيين-ومن ثم الخروج باتجاه تونس-وعند الوصول إلى جزيرتي زمبرة وزمبرتة بقي القرصان هناك لمدة عشرة أيام-ثم الهجوم على ميناء مدينة تونس.

وتبدو الأحداث التي دونها النص والمتعلقة بمهاجمة ميناء حلق الوادي مهمة ذلك أن الحملة قد انطلقت من جزيرة سردينيا وبقيت تلك المجموعة من القراصنة في جزيرتي زمبرة(El Gemol) وزمبرتة(El Gemolin) لمدة عشرة أيام ثم تمت مباغتة ميناء مدينة تونس ودارت هناك معركة عنيفة حسب النص ذهب ضحيتها عديد المسلمين من رعايا السلطان الحفصي على الرغم أن عدد الفرسان المدافعين عن المدينة قد بلغ ١٠,٠٠٠افارس.(٥٠) وأرّخ الراشدي على ما يبدو لتلك العملية القرصنية بقوله: "نزل النصارى ببعض السواحل القريبة من تونس فقتل المسلمون منهم عددًا كبيرًا وجاءوا برؤوسهم إلى المدينة".(٥١)

وخلال نفس الفترة تقريبًا ذكرت مناقب بن عروس حسب شاهد عيان "أن مركبا سافر من تونس متوجها إلى الإسكندرية بمن فيه من التجار فبينما هو في مرسى طرابلس وإذا بسفن تسع أو ثمان لجنس آخر من النصارى دخلوا عليه وبين الجنسين عداوة عظيمة فكان بينهم قتال عظيم شاهدته وأنا إذ ذاك بطرابلس فأخذوه بعد جراح وقتل وكان سبب أخذه على ما كنا نسمعه مستفيضا هنالك قلة البارود عندهم وإلا فالمركب عظيم مكمل من العدد ثم لما صار المركب على ملك آخذيه وفيه كثير من سلع المسلمين سافر أرباب السلع فيه كارين".(٥٢)

وفي شهر جانفي من سنة ١٤٦٦م ذكر ابن عبد الباسط عندما كان بوهران وجود أربعة مراكب للفرنج جاءت من جهة المغرب ففزع أهل النواحي بخارج وهران إليها بل وأرجف بوهران أن هذه المراكب مشحونة بالمقاتلة وأنهم قصدوا أذى المسلمين ثم اجتازت تلك المراكب ولم تعرج لجهة وهران ولا سواحلها " ثم بلغنا الخبر بأنها أخافت السبل بنواحي بجاية وأخذت بالمارة وأسرت الكثير من المسلمين". ويذكر كذلك ما حدث ببجاية عند دخولهم إلى الساحل ونزلوا من المركب هرب من رآهم ظنا منه أن "المركب قرصال للفرنج وأنهم غيروا هيئاتهم حيلة لأخذ المسلمين" ويضيف "فصرنا نصيح عليهم من البعد ونكلمهم بالعربي ونقر بالشهادتين وهم لا يلتفتون إلينا ولا يعرجون علينا "(٥٣)

إن الخوف من السفر في البحر كان واقعًا وكان الفقهاء وعلى رأسهم ابن عرفة قد أفتى بضرورة عدم استعمال مراكب النصارى وحبذ السفر في البر على مشقة السفر في البحر-وهو ما قام به عند ذهابه للحج سنة ١٣٦٥م-حفاظًا على "كرامة" المسافر المسلم[٥٤] لأنه "يغدر النصراني المسلمين الراكبين معه فلا يحل لأحد أن يتعرض لأموالهم إلا على وجه الفداء لأربابه كاللصوص" على حد تعبير البرزلي.[٥٥] أما أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى أبي بكر الفاسي (ت.١٣٧٥ م) الذي "أدركه المبيت في بلد الحمامات التي ما زال عدو الله ينزل بها فخاف أن أبروطة من عدو الدين تنزل بالبلد ويأخذونه أسيرا فبقي ساهرًا الليل كله وأكثر من قراءة القرآن وهو خائف"[٥٦] وذكر ادورن في رحلته أنه توجد بالقرب من سور مدينة المنستير صخرتان كبيرتان ويذكر السكان أنهما سفينتان حاولتا دخول المدينة لخطف أهلها فخرج الأولياء الصالحين وحولوا السفينتين إلى صخرتين وبقيتا على تلك الصورة إلى اليوم.[٥٧]

وفي نفس الفترة ذكرت مناقب بن عروس رواية المدعو الحاج أبي الحسن علي النفاتي الذي خرج من طرابلس متوجهًا إلى تونس برفقة أربعة عشر رجلاً وكانوا في قارب فلما انتهوا إلى مرسى رأس المخبز اعترضهم أربع سفن للنصارى قد توجهوا لأخذهم ولم يجد ذلك المسافر إلا اللجوء للولي بن عروس قائلا "وناديت يا سيدي نهيتني أن أذكرك إلا عند الشدائد وأي شدة أكبر من هذا الأسر والكبل والذل بين أعداء الدين فما أتممت الكلام إلا والشيخ عندي في القارب ومعه سيدي محمد شوشو...فوضعا أيديهما على رأسي وقالا لي لا تخف لا بأس عليك... ونجانا منهم ببركة التجائي إلى الشيخ."[٥٨]

نستشف من خلال ما ذكرناه سابقا وما بينته لنا المصادر المختلفة واقعًا معقدًا إلا أنه كان مفروضًا على الطرفين الحفصي والأوربي فقد طغى على تلك الفترة منطق التنافس الذي صار يتحكم في العلاقات الأوربية-المغربية كما ساهم ذاك التنافس والتناحر على التجارة في جمع الثروة واغتنام الفرص.

فكانت القرصنة والقطع البحري الأوربي لا يخضعان إلى أي قانون أو عقيدة وإنما الدافع كان الربح السهل والسريع والذي لا يتطلب إلا الجرأة والمغامرة لاجتياح المدن الساحلية المغربية واعتراض رعايا بلاد المغرب في عرض البحر بهدف الحصول على غنائم متنوعة لعل أهمها الأسرى الذين يتم تحويلهم إلى عبيد وكان هذا السلوك القرصني متبعا كذلك من قبل المغاربة الذين ورغم عدم مجاراتهم للتطور البحري الأوربي فإنهم يقومون بالوسائل المتاحة بعمليات الأسر حتى أصبح هناك تقليد في التعامل مع مشكل الأسر والاستعباد بنفس الطريقة تقريبًا.[٥٩]

هكذا بدا لنا الوضع خلال الفترة الفاصلة بين القرن الحادي عشر- وصولا إلى القرن الخامس عشر- وهو تاريخ بداية تحلل منظومة الدول المغربية ولعل الوضعية التي سادت المتوسط كذلك في القرن الموالي (السادس عشر-) لم تكن حسب اعتقادنا إلا تواصلا مع الفترة السابقة وخاصة بعدما أصبح المتوسط مجالا لصراع جديد بين كل من العثمانيين والإسبان للسيطرة على دول فشلت في الحفاظ على توازنها أمام تصاعد المد المسيحي خاصة بعد طرد الأندلسيين سنة١٤٩٢م وانسحاب القوى التقليدية (الدويلات الإيطالية). ولعل تلك الوضعية الصعبة لبلاد المغرب قد زادت في تنامي عمليات الأسر والاستعباد وكان ذلك العدد الكبير من الأسرى الذين تحصل عليهم الأوربيون ينظر إليهم باعتبارهم العدو المباشر للدول المسيحية وهو ما جعل المتوسط مجالا لتجارة العبيد إلى نهاية القرن السادس عشر.

ثالثًا: القرصنة الأوربية خلال القرن السادس عشر

كانت الحرب بين تركيا والبندقية قد اندلعت بين ١٤٩٩ و١٥٠٢ وتلتها حرب بين نابلي وفرنسا بين ١٥٠٢ و١٥٠٣ وبدأت الحرب تلقي بظلالها بين قوى مختلفة وكانت عمليات حشد الجنود واستعمال مختلف المراكب والسفن لنقل المؤن والعدة والعتاد خير دليل على التوجه أكثر للتوسع واحتلال مناطق لم يعد بإمكانها أن تصمد للشلل الذي أصاب مكوناتها الأساسية.

فالبندقية قامت بحشد ٢٠,٠٠٠جندي ولنقل هذا العدد الكبير تم استغلال حتى مراكب صيد التن وكان التنسيق مع اسبانيا للقيام بغزو مدن بلاد المغرب وكلف ذلك بمبلغ قدره ٣٥٠,٠٠٠دوكا ساهمت فيها مملكة أرغون ب٢٠,٠٠٠ دوكا كما ساهم منكادا نائب ملك صقلية بمبلغ ٢٥,٠٠٠دوكا سنة ١٥٠٩ وكانت الحرب الكبرى التي تم التحضير لها ضد طرابلس حيث دارت سنة ١٥١٠ حربا رهيبة بقيادة Gonsalvo Fernandez و Bernardo de Vilamari و Luis de Requenses فاحتلت المدينة يوم عيد Saint Jacques في شهر أوت.

كان اشتداد الحرارة في ذلك الشهر قد دفع السكان إلى تدمير كل نقاط الماء لمواجهة العدو وللتخفيف من الخسائر وهي عملية يلجأ إليها الضعفاء لمقاومة الموت وقطع سبل الحياة على العدو وهو بالفعل ما أدى إلى ترهيب محدود ولكنه

عميق الأثر على المرضى والجرحى وصادفت تلك الغزوة موجة قحط امتدت لستة أشهر حتى أن قائد الحملة ترك في خريف ١٥١٠ هناك ٣٠٠٠ جندي وكل الجرحى لأنه لم يدفع لهم أجرهم وشب الهلع والفوضى داخل الجيش الغازي وأصبح الماء يباع من قبل بعض الجنود مما أدى إلى تمرد العديد منهم وخيروا الجحيم على البقاء هناك على حد قول أحد شهود المعركة.[٦٠]

وفي سنة ١٥١١ نقل لنا Venier Pelegrin التحضيرات الجديدة لتلك الحملة والتي كانت أكثر حسما من سابقاتها، إذ وصل من مختلف البلاد الاسبانية السفن والجنود واحتياط هام من اللحم المملح وكميات كبيرة من الجبن والخبز بالإضافة إلى كميات كبيرة من الماء التي جمعت في كل الموانئ فكانت ١٠,٠٠٠ طن في نابلي و٣٠٠٠ في بلرمو و٣٠٠٠ طن في كلابر وذلك لأن الصيف كان رهيبًا.[٦١]

اتخذت الحملة لون الحركة الصليبية ففي سبتمبر سنة ١٥٠٥م احتلت أولى الفرق المرسى الكبير وفي ١٧مارس ١٥٠٩م استولى الكونت بيدرو دي نافارا على وهران وأسر ٨٠٠٠ شخص وذكرت عقود الموثقين الأسبان أن مريا أصلها من وهران وعمرها ١٨سنة وعرضت للبيع في شهر سبتمبر ١٥٠٧ في مدينة بلنسية من قبل تاجر أصيل طليطلة وأكدت هذه الأسيرة أنها قد أسرت في بلدها ثم اقتيدت إلى طليطلة حيث اشتراها التاجر المذكور كما احتلت بجاية دون مقاومة تذكر سنة ١٥١٠م وعقد في شهر ماي من نفس السنة اتفاقية مع سلطان تونس أعلن فيها تبعيته للملك الإسباني.[٦٢]

أما مدينة طرابلس فلم يكن نصيبها أقل حظًا من نظيراتها من المدن المشار إليها أعلاه وقد ذكر قائد الحملة Pedro Navara أنه "قتل ٥٠٠٠من العرب وأسر أكثر من ستة آلاف" أما Battistino de Tonsis الذي شارك في الحملة فقال: "أنه أسر منهم حوالي ٥٠٠٠ شخص من مجموع ١٠,٠٠٠ ساكن أو أكثر أما البقية فقتلوا ولم ينج منهم إلا القليل الذي تخطى السور من جانب الحي اليهودي... أما الأعداء فقد قتلوا شر قتلة وحوصر الأحياء في القلعة والمسجد وقد تمكنوا بعد ذلك من الاستيلاء عليه بالقوة بعد قتال مرير وأسر الشيخ مع أولاده وزوجته كما أطلق سراح ١٥٠ مسيحيا وهم من أسرى وخدام العرب الذين وجدوا في الخنادق مصفدين وذكر تقرير لشخص مجهول شارك في الأحداث رواية أخرى بأن القتلى من العرب كانوا ستة آلاف وأسر حوالي ١٠,٠٠٠ وتم إطلاق سراح ١٧٠ أسيرًا مسيحيًا وأغلبهم من الصقليين والمالطية."[٦٣]

وتم حمل آلاف الأسرى بعد احتلال مدينة وهران إلى أسواق سردينيا وأرغون وكذلك الشأن بالنسبة لأسرى طرابلس الذين حملوا إلى إيطاليا وقد ذكر قنصل البندقية في نابلي يوم ١٤ سبتمبر ١٥١٠ وصول "عديد العبيد الذين تم بيعهم هناك" أما قنصل بالرم فذكر أن "يوم ٣سبتمبر بيع ١٤٠٠ عبد بقيمة تتراوح بين ٣ و٢٥ دوكا وتم أخذ كل القيمة إلى البلاط الملكي".[٦٤] وفي يوم ٢٥جانفي ١٥٢١ ذكرت وثائق عبدا اسمه إبراهيم أصيل مدينة بجاية الذي ذكر أنه أسر من قبل سفينة من مالقة وكان ذلك منذ ٨سنوات مما يعني أن تاريخ أسره كان سنة ١٥١٣م وهو على ملك التاجر Johan March أما يوم ١٤/٧/١٥١٧م فقد عرض التاجر Johan Beneyto ثلاثة أسرى أصيلي تونس وهم على التوالي: علي عمره ٣٠سنة، محمد بن الزيات عمره ٢٨سنة ومحمد زبرة لم يحدد عمره هذا ونشير إلى أنه قد تم أسرهم من قبل سفن جنوية حيث تم إنزالهم في قادس ثم حملوا إلى بلنسية وفي يوم ١٢مارس ١٥١٨ قام التاجر البلنسي Ausias Garcia بعرض ٣أسرى للبيع منهم اثنان أصيلي الجزائر: الأول اسمه محمد وعمره ١٨سنة والثاني اسمه أحمد؟ أو عصمت وعمره ٥٠ سنة وقال هذا الأخير أنه كان تاجرا بالجزائر وأصله حر وعند تنقله من الجزائر إلى مكان يبعد أربع مراحل عن مدينته تم أسره من قبل مراكب جنوية وقد قاموا بسرقة جواز سفره وعند وصوله إلى بلنسية تم بيعه من قبل البلدية باعتباره عبدا لأنه لا يملك وثائق شخصية تبيح له التنقل.[٦٥]

وأشارت وثائق الأرشيف الأوربي إلى العديد من الأسرى المغاربة الذين تم خطفهم في عرض البحر مثل أحد الأسرى التونسيين الذي يُدعى "علي" وعمره ٣٠ سنة وقد ذكر بأنه تم أسره من قبل مسلحين جنويين عند مهاجمة مدينة تونس وتم نقله إلى قادس يوم ١٩/٠٢/١٥١٩ وكان نفس المصير لأسير آخر اسمه "علي" وعمره ٢٣ سنة أصيل تونس وذكر أنه كان خياطا وكان قبل تاريخ أسره بعامين قد اعترض مركبه سفن جنوية عندما كان عائدا من تركيا فأسر جميع من كان معه وعددهم ٦٠ شخصًا. وتم نقل الأسرى إلى جنوة وبعد ذلك رحل "علي" و٤٠ شخصًا آخر إلى قادس ثم تم شراؤه من قبل التاجر Lopiz وجيء به إلى بلنسية مثل غيره من الأسرى وفي شهر جويلية من سنة ١٥٢٠ ثلاثة أسرى تونسيين برفقة التاجر الجنوي Joan Bartoloto وقد ذكر العبيد أنهم أسروا في عرض البحر من قبل غليونات Andrea Doria الذي أوصلهم إلى بلنسية.[٦٦]

وعلى إثر الاحتلال الأسباني سنة ١٥٣٥م ذكر شاهد عيان برتغالي أنه قد تم أسر ٨٠٠٠ شخص في حين ذكر ابن أبي دينار أنه قد "أسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث...وعدد كل ثلث ستون ألفا"[٦٧] وكان من بين الأسرى رجالاً ونساءً يهود تم بيعهم في مناطق مختلفة وخاصةً في كل من نابلي وجنوة حيث تم شراء العدد الأكبر منهم مثلما تحدث عن ذلك أحد الأطباء اليهود.[٦٨] أما المنستير فقد أخذت سنة ١٥٥٠ من قبل أندري دوريا كما تعرضت المدينة للنهب من طرف سفن قراصنة أصيلي تراباني (صقلية) سنة ١٥٨٦ وتم أسر أربعين شخصًا فقط لأن سكان المدينة كانوا يهجرونها في فصل الصيف خوفا من هجمات القراصنة.[٦٩]

وتم الهجوم على المهدية في شهر جوان ١٥٥٤ وضرب حصار على المدينة وقدر عدد القتلى بالمدينة يوم ٨ سبتمبر ١٥٥٥ بسبعمائة قتيل كما أسر حاج رايس وحوالي عشرة آلاف آخرين من الأتراك والأهالي و تمّ إرسالهم على متن السفن إلى سردينيا وصقلية كما تمّ تحرير خمسمائة عبد مسيحي ونتيجة التدمير الذي أصاب المدينة ذكرت المصادر أنها أصبحت في سنة ١٥٨٧ مدينة ميتة كما لم تخل جزر قرقنة من التدمير والخطف والأسر حتى أفقرت المدينة من سكانها وخلال سنة ١٥٧٦ تم أسر ١٠٠٠شخص أما سنة ١٦١١ فكان عدد الأسرى ٥٠٠ شخص[٧٠] وفي سنة ١٦٠٢م تم غزو مدينة الحمامات وأسر ٣٩٦ شخص وفي سنة ١٦٠٦ تم غزوها ثانية وأسر ٧٠٠شخص.[٧١]

أما بالأندلس وبعد التمرد الذي قام به الموريسكيون سنة١٥٦٨ نشبت حرب مروعة ضد سكان القرى الأندلسية وحسب شهادات المؤرخين في تلك الفترة تم أسر ما بين ٢٥ و٣٠ ألفًا شخص حولوا إلى عبيد خلال الفترة المتراوحة بين ١٥٦٩ و١٥٧١.[٧٢] وفي نفس الفترة وبعد هزيمة الأتراك في معركة Lépante سنة ١٥٧١ كانت الخسائر التركية قد وصلت إلى ٣٠,٠٠٠ قتيل وتم أسر ٣,٥٠٠ وكان نصيب Don Juan d'Autriche ٧٢٠عبدا وست عشرة غليونة وهو ما يوافق عشر الغنيمة ١/١٠.[٧٣] كما استفادت أوربا كذلك من الأوضاع الداخلية الهشة التي ميزت دول بلاد المغرب وكانت مختلف الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأوبئة والمجاعات خير سند لتوفير أعداد هامة من العبيد والأسرى أصيلي بلاد المغرب.

من خلال ما تقدم ذكره واعتمادًا على المعلومات المتناثرة التي قدمتها المصادر وحاولنا الاستفادة منها فإننا نخلص إلى نتيجة رئيسة تتمثل في العدد الكبير الذي تم أسره من رعايا السلطان الحفصي وكنا قد أشرنا إلى عمليات القرصنة التي تعرضت إليها إفريقية خلال الفترة السابقة لانتصاب الحفصيين لكي نبين أن مشكل السواحل الإفريقية كان نتاج وضع سابق ولكنه تفاقم في الفترة المعنية بالدراسة وقد انعكس ذلك في العدد الكبير من العبيد الذين زودوا السوق الأوربية خلال كامل تلك الفترة.

إن القيام بعملية إحصاء دقيقة تبدو صعبة المنال بالنسبة للدارس إلا أن ما نجمله في المعلومات الآتي ذكرها بمثابة أرقام تقريبية فحسب ولكنها تبقى معبرة عن استفحال عمليات الأسر والاستعباد. وقد بلغ عدد الأسرى ثمانية عشر ألف وثلاثمائة أسير (١٨,٣٠٠ أسير) في أربع عمليات إنزال ومحاصرة لكل من مدينة جربة سنة ١٢٨٤م (٨,٠٠٠أسير) ومدينة طرابلس سنة ١٣٥٤م (٧,٠٠٠أسير) وتدلس سنة ١٣٩٨م (٣٠٠أسير) وجزر قرقنة سنة ١٤٢٤م (٣,٠٠٠ أسير). أما إذا أضفنا لهذا العدد أسرى مدينة طرابلس سنة ١٥١٠م الذين بلغوا (١٠,٠٠٠ أسير) ونضيف إليهم مجموع عشرين ألف ومائتي أسير (٢٠٢٠٠ أسير) في كل من تونس والمهدية وقرقنة والحمامات فإن مجموع الأسرى يصل إلى ٤٨,٥٠٠ شخص دون اعتبار عدد أسرى المدن الجزائرية.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ٦٠,٠٠٠ أسير الذي قدمه ابن أبي دينار فيما يتعلق بمدينة تونس فإن مجموع أسرى إفريقية خلال الفترة المدروسة يصل إلى ما يناهز ١٠٠,٠٠٠ شخص في الفترة الممتدة ما بين ١٢٨٤ و١٦٠٢ أي خلال ثلاثة قرون وهو ما يعني ما يناهز ٣٣,٠٠٠ أسير كل مائة سنة أي بمعدل ٣٣٠ أسير كل سنة. وذكر أحد الدارسين أنه مع منتصف القرن السادس عشر (١٥٥٠) كان عدد العبيد المغاربة يصل إلى ٢٠,٠٠٠ أسير في مدينة نابلي فحسب وبين ٤٠,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠ عبد خلال القرن السابع عشر في كل المجال الإيطالي وفي مدينة طولون الفرنسية كان يوجد ما يناهز ١٠,٠٠٠أسير سنة ١٦٥٠.[٧٤]

وتبدو هذه الأرقام تقريبية لأنها بعيدة عن الواقع الذي حاولنا تسليط الضوء عليه، وعلى الرغم من ذلك فإن تلك الأرقام مجتمعة تفيد بشكل رئيس أن بلاد المغرب وإفريقية قد كانت طوال الفترات المشار إليها سابقًا خزانًا احتياطيًا من العبيد الذين بقي أغلبهم مجهول المصير.

أعداد أسرى القرصنة الأوربية في إفريقية

سنة الاجتياح	المدينة المنكوبة	الدولة المعتدية	عدد الأسرى	المصدر والمرجع
١١٤٣	بونة	النورمان	"تفقير المدينة من سكانها"	الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٥٤.
١١٥٣م	جربة	النورمان	"أغلب السكان"	-ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٨٤٩. التجاني، رحلة، ص١٢٦.
١٢٠٠	تونس	بيشة	«جميع التجار والركاب"	Amari, I diplomi..., p23, 28.
١٢٨٤	جربة	أرغونة	٨,٠٠٠ أسير.	العبر، ج٦، ص٦٩٧. الفارسية، ص١٥٠.
١٢٨٧	مرسى الخرز	النصارى	"حملوا أهلها أسرى	العبر، ج٦، ص٦٩٨.
١٢٨٩	بونة	النصارى	"أسر أشخاص من البر"	العبدري، رحلة، ص٣٧.
١٣٥٤م	طرابلس	جنوة	"أسر جميع أهل البلد" ٧,٠٠٠ أسير	الزركشي، تاريخ الدولتين، ص١٩٢. ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٩٦٤. برنشفيك، ج١، ص٢٠٤،٢٠٣.
١٣٩٨	تدلس	أرغونة	٣٠٠ أسير	برنشفيك، ج١، ص٢٥٢.
١٤٢٤	قرقنة	قطلونيا	قتل ٢٠٠ وأسر البقية من أصل ٢٠٠٠ شخص. -٣٠٠٠ أسير.	الزركشي، ص٢٥٢. برنشفيك، ج١، ص٢٦٠.
١٥١٠م	طرابلس	الأسبان	١٠,٠٠٠ أسير.	روسي، طرابلس..، ص٢٢.
١٥٣٥م	تونس	الأسبان.	٨,٠٠٠ أسير. "أسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث" ما يناهز ٦٠,٠٠٠ أسير.	De Sousa(F.L), « La participation portugaise à l'expédition...»,op-cit, R. T, 1940, n°43-44, p313. -ابن أبي دينار، المؤنس، المصدر السابق، ص ١٨٦.
١٥٥٥	المهدية	الأسبان	حوالي ١٠,٠٠٠ أسير	مارمول، ج٣، ص٧٤، ٨٣.
١٥٧٦ ١٦١١	قرقنة	الأسبان	١٠٠٠ أسير ٥٠٠ أسير	Pignon (J), « Un document inédit...», p167.
١٦٠١م	الحمامات	الأسبان	٧٠٠ أسير	Conor (M), « Les exploits d'Alonso Contreras... », R.T, 1913, p600.
العدد الإجمالي للأسرى: ٤٨,٥٠٠ أسير.				

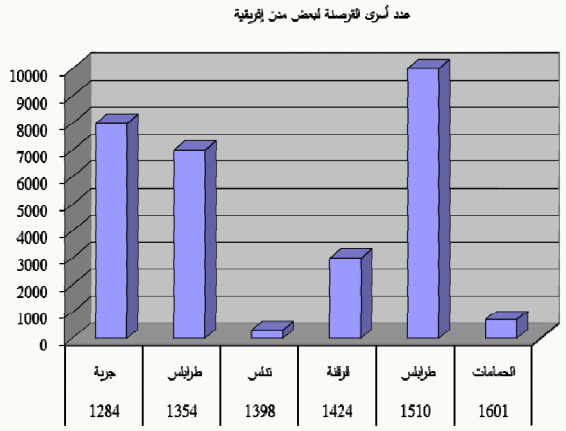

خَاتمَةٌ

ما يمكن أن نتبينه من العرض السابق أن القرصنة الأوربية بقيت نشيطة خلال كامل الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر، وعاشت المدن الساحلية لبلاد المغرب عمومًا وخاصة إفريقية على وقع الهلع والتدمير وأسر واستعباد سكان تلك المدن الساحلية. لقد تبين أن تنظيم القرصنة الأوربية كان مُحكمًا إذ شهد تطورًا هامًا عبر الزمن ومثل الجانب الربحي والمردود الجيد ميزة كل عمليات القرصنة في عرض البحر أو على السواحل الإفريقية ومع بداية القرن السادس عشر أصبح الوضع ملائمًا لعمليات قرصنة لدول كبرى وبقيت إفريقية ضحية تلك العمليات القرصنية. إن ذلك يعني أن القرصنة ساهمت في التوسع العثماني باتجاه الغرب ووفرت رصيدا ماليا هاما لتحقيق ما يصبوا إليه العثمانيون الذين قاموا بالتدخل المباشر في الشؤون الإفريقية قبل المعاهدة الثنائية بين الأتراك والإسبان سنة ١٥٧٤ وكانت إفريقية مستقلة عن السلطان العثماني "ومكملة لجهده الحربي ضد المسيحيين".

كما كان عدم تنظم السلطنة الحفصية منذ الاستنجاد بالإسبان وتواجدهم في حلق الوادي بمثابة تواصل مع ما جد سابقًا من تحالفات بين الحفصيين والأرغونيين غير أنه لم يكن خاضعًا لنفس الأغراض ومنذ سنة ١٥٧٤ أصبحت القرصنة منظمة أكثر من السابق بعد استقرار الأتراك في كل من تونس والجزائر وطرابلس إذ أنها مثلت مؤسسة سياسية واقتصادية واجتماعية واحتكرت العائدات المالية للقرصنة من قبل العناصر التركية التي استقرت بتونس بعد سنة ١٥٧٤ وخاصةً بعد ظهور الدايات، إزاء تلك الأحداث التي صبغت علاقات التوتر بين الحفصيين والدول الأوربية وما نتج عنها من عمليات أسر متبادلة تبين لنا ردود أفعال مختلفة ومن بينها عمليات الغزو والقرصنة الإفريقية التي بدت محدودة ولم تسفر في كل الحالات إلا عن أسر واستعباد أعداد قليلة مقارنة بالقرصنة الأوربية.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن منظور (جمال الدين)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧، المجلد الثاني، ص٤٩. انظر كذلك: الزحيلي (وهبة)، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة، دار الفكر، بيروت،١٩٨١، ص٣١،٣٢.

(٢) ابن خلدون، كتاب **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ البربر والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني،١٩٥٦، ج٦، انظر على سبيل المثال "فتح تونس وبقية عمالات إفريقية"، ص٨٦٦-٨٨٧.

(٣) نفس المصدر، ص٧٤٩ وغيرها في مواقع عدة من العبر.

(٤) نفسه، ص٥٩٩،٦٠٠. انظر كذلك الترجمان (عبد الله)، **تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**، تحقيق الطاهر المعموري، دار بوسلامة للنشر، تونس، ١٩٨٣، ص٢١.

(٥) خصص ابن الشماع على سبيل المثال في آخر مؤلفه فصلا "في ذكر الحرابة" ومما جاء فيه "وإذا خاف المحاربون السبيل وقطعوا الطريق وجب على المسلمين التعاون في قتالهم من غير أن يدعوهم الإمام" انظر **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب،١٩٨٤، ص١٣٣-١٣٥.انظر كذلك حسن (محمد)، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس،١٩٩٩، ج٢، ص١٤٦.

(6) Amari (M), I diplomi Arabi del archiviofiorentino,Firenze,1863,p.20,21,148...

(7) Ibid, p133, 148; Brunschvicg (R), Deux récits de voyages inédits ..., Paris, 1936, p67.

العزّاوي (أحمد)، الغرب الإسلامي (خلال القرن ٧هـ/٨هـ) دراسة وتحليل لرسائله، تغيرات موازين القوى، (٦٧٠-٧٣٠هـ/١٢٧٢-١٣٣٠م)، مطبعة الرباط، المغرب، ٢٠٠٧، ج٢، ص٢٤٠.

(٨) البرزلي (أبو القاسم)، **جامع مسائل الأحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ج٢، ص٢٥.

(9) Dictionnaire encyclopédique, Paris, 1970, article « pirate », p5250. La grande encyclopédie Larousse, article «Corsaire», P. 3376; Dan (P), Histoire de Barbarie et de ses corsaires des royaumes et des villes d'Alger, de Tunis, de Salé et de Tripoli, Seconde éditions, Paris, 1646, p.10-16.

(10) Monlau (J), Les Etats barbaresques, PUF, Paris ,1964. Durand (L), Pirates et barbaresques en méditerranée, Paris, 1975. Mansouri (M.T), «Le Maghreb médiéval face aux expéditions occidentales», C.T, n169-170, Tunis 1995, p.139-147. Heers(J), Les barbaresques, la course et la guerre en méditerranée XIV-XVI (e) siècle, Perrin, 2001.

(١١) ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب في تاريخ وحلى المغرب**، تحقيق كولان وبروفنصال، نشر دار الثقافة بيروت، لبنان،١٩٨٣، ج١، ص٣٠١، التجاني، **رحلة**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس،١٩٨١، ص٣٣١، ٣٣٢.

(12) Mansouri (M.T), «Le Maghreb médiévale... », Op.cit, p139, Monlau (J), Les Etats barbaresques, Op.cit, p30.

(١٣) ابن خلدون، كتاب العبر، ج٦، ص٩٠٢، ٩٠٣.

(14) Picard (Ch.), La mer et les musulmans d'occident au moyen age, VIII-XIII siècle, PUF, Paris, 1997, p.75-90.

(١٥) عزيز (أحمد)، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ترجمة، أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠، ص٥٧-١٠١.

(١٦) التجاني، **رحلة**، ص١٢٦، ابن خلدون، **العبر...**، **ج٦**، ص٨٤٩. ابن عذاري، **البيان...ج١**، ص٣١٣،٣١٢. عزيز، تاريخ صقلية...، المرجع السابق، ص٦٧.

(١٧) ابن عذاري، **البيان المغرب...**، ج١، المصدر السابق، ص٣١٣.

(١٨) ابن الأثير (عز الدين)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق جوهان كارولين تورنبورغ، بريل،١٨٥١، طبعة دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥، ج١١، ص٣١، ٣٢، ٩١، ١٠٨، انظر كذلك، عزيز، تاريخ صقلية...، المرجع السابق، ص٦٧.

(١٩) الإدريسي (محمد)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشر الحاج صادق، الجزائر، ١٩٨٣، ص١٥٤.

Monlau (J), Les Etats barbaresques, op.cit, p31.

(20) Mansouri, op.cit, p145.

(٢١) ابن خلدون، **العبر... ج٦**، ص٦٩٧، ٦٩٨، ابن القنفذ، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر،١٩٨٩،ص١٥٠.

(٢٢) العبدري (أبو عبد الله محمد)، **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط،١٩٦٨، ص٣٧.

(23) Dufourcq (Ch.E), L'Espagne catalane au XIII et XIV siècles de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou l Hasan(1331), Paris, 1965, p. 252; 254-256 et surtout p257.

(24) Ibid, p.408-409.

(٢٥) ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،١٩٨٥، ص٣٨٠. وفيما يتعلق بالعبيد والأسرى المسلمين في الأندلس يمكن الرجوع إلى:

Verlinden (Ch.), L'Esclavage dans l'Europe médiévale. I (Péninsule Ibérique, France), Bruges, 1955.

(٢٦) ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب...، قسم الموحدين**، ص٣٨١.

(٢٧) توجد هذه المدينة في هضبة بولية Apulia شمال شرقي مدينة نابلي وكان يوجد بها المسلمين الذين تم نقلهم من جزيرة صقلية، انظر: عزيز(أحمد)، تاريخ صقلية الإسلامية، المرجع السابق، ص١٢١، ١٢٢.

(28) Heers (J), Esclaves et domestiques au moyen age..., Op.cit, p.29, 30 ; Ibid, Les barbaresques..., p.207, 208.

(29) Dufourcq, L'Espagne catalane..., op-cit, p.428-430 ; Mansouri, Op.cit, p145, 146.

(30) Dufourcq, op-cit, p.497-500.

(31) Ibid, p498.

(٣٢) العزّاوي (أحمد)، الغرب الإسلامي...، ج٢، المرجع السابق، ص٢٣٣، ٢٣٤.

(٣٣) ابن بطوطة (محمد ابن عبد الله)، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق عبد الهادي التازي، المملكة المغربية، ١٩٩٧، **المجلد الرابع**، ص١٨٤.

(٣٤) **نفس المصدر**، ص١٩٠.

(35) Dufourcq, L'Espagne catalane..., op-cit, p.575, 576.

(36) Heers, Les barbaresques..., op-cit, p.39-42.

(37) Dufourcq, L'Espagne catalane..., p.487, 571.

(38) Ibid, p. 428-430 ; Mansouri, Op.cit, p145, 146.

(٣٩) ابن خلدون، **العبر...ج٦**، ص٩٦٤. انظر كذلك الزركشي (محمد بن إبراهيم اللؤلؤي)، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق الحسين اليعقوبي، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٩٨، ص١٩٢، ٢٥٢.

(٤٠) الترجمان، **تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**، المصدر السابق، ص١٣.

(41) Amari (M), I diplomi arabi...,op-cit,p.23-28.

(42) Ibid,p.43,44.

(43) Amari,I diplomi...,op-cit,p.86-95.

(44) Ibid,p.99-111.

(45) Ibid,p148.

(46) Verlinden, l'Esclavage..., T2, Op.cit, p.259, 260; 283.

(47) Dufourcq, L'Espagne catalane..., op-cit, p82.

(48) De Games(Gutierr), El Victorial, texte établi par Beltran Liavador(R), édition Clasicos Taurus, n°25, 1994, chapitre (37-50) ,18pages.

(49) Ibid, chapitre 37, p1.

(50) De Games, El Victorial..., op-cit, chap.42-45, p.4-7.

(٥١) الراشدي (أبو عبد الله محمد)، **ابتسام العروس ووشي الطروس**، مطبعة الدولة التونسية،١٣٠٣هـ، ص٤٢٢، ٤٢٣.

(٥٢) **نفس المصدر**، ص٤١٤.

(53) Brunschvicg (R), Deux récits de voyages..., op-cit, p. 60, 61 ; 67,68.

(٥٤) البرزلي، **جامع مسائل الأحكام، المصدر السابق، ج٢**، ص٤٦: يقول ابن عرفة: "الصواب اليوم أنه خلاف في حال، فإن كان أمير تونس قويا على الروم جاز، وإلا لم يجز لإهانتهم للمسلمين...الصواب اليوم أنه يمنع لكن بعض أهل الصلاح كان يركب معهم..."

(٥٥) البرزلي، **نفس المصدر، ج٢**، ص٢٥.

(٥٦) ابن ناجي (أبو الفضل)، **معالم الإيمان...، ج٤**، ص١٨٩، ١٩٠.

(57) Brunschvicg (R), Deux récits de voyages inédits..., Paris, 1936 p.124, 125.

(٥٨) الراشدي، **ابتسام العروس، المصدر السابق**، ص٣٨٢، ٣٨٣.

(59) Dufourcq, L'Espagne catalane..., op-cit, p.573, 574 ; Heers (J), Les barbaresque..., op-cit, p.25-32.

(60) Doumerc (B), Venise et L'Emirat hafside de Tunis (1231-1535), L'Harmattan, Paris, 1999, p.131, 132.

(61) Ibid, p132.

(٦٢) روسي (ايتوري)، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، ترجمة وتقديم خليفة وتقديم خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٣، ص١٧، ١٨.

Heers(J), Les barbaresque..., p.13, 14. Braudel (F), La méditerranée et le monde méditerrannièn a l'epoque de Philippe II, Armon Colin, Paris, 1979, t2, p148, 149 ; Barcina (R.B), Une marchandise humaine..., op-cit, p70.

(٦٣) روسي، نفس المرجع السابق، ص ١٩-٢٢.

(64) Doumerc, Venise et L'Emirat hafside de Tunis, op-cit, p132, Braudel, La méditerranée. ..., op-cit, p93-94.

روسي، نفسه، ص٢٣.

(65) Barcina, Une marchandise humaine..., op-cit, p71.

(66) Ibid, p.99, 100.

(67) De Sousa (F.L), « La participation portugaise à l'expédition ... », Op.cit, p313.

ابن أبي دينار(محمد)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ص١٨٦.

ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٦٣، ج٢، ص ١٦.

(68) Braudel (F), La méditerranée..., op-cit, p149.

(69) Pignon (J), «Un document inédit sur la Tunisie au début du XVII siècle», Cahier de Tunisie, n33-34, p166, note (11).

ابن أبي الضياف، **نفس المصدر، ج٢**، ص١٦.

(70) Ibid, p167, note (14).

مارمول (كربخال)، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، دار نشر المعرفية، المغرب، الرباط،١٩٨٣، ج. ١١١، ص. ٧٤ – ٨٣.

(71) Conor (M), «Les exploits d'Alonso Contreras, aventurier espagnol en Tunisie (1601-1611)», Revue Tunisienne, n97, Janvier1913, p600; Pignon (J), «Un document inédit...» , Op.cit, p166, note (9).

(72) Vincent (B), «Les esclaves d'Almeria (1570)», in pouvoir et société dans l'Espagne moderne, hommage à Bartolomé Bennassar, Presse Universitaire du Mirail, 1993, p.194, 195.

(73) Heers (J), Les barbaresques..., op-cit, p.125, 126.

(74) Bono (S),Corsari nel Mediterraneo, Milan, 1993, P.194, 195.